التيارات الوافدة

كافة حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة
الإدارة: ٧ ش السراى ـ أول المنيل ت . فاكس: ٩٨٧٩٢٤
الفرع: حدائق حلوان ـ بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

رسائل إلى الشباب المسلم

(٦)

التيارات الوافدة

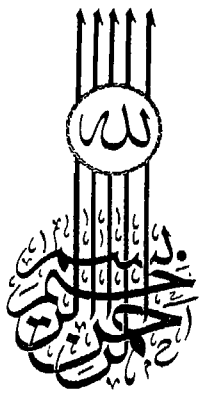

مقدمة

فى إطار هذه الدراسة الجامعة للإسلام وقضاياه الكبرى فى العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجرى ، تجىء موجة التيارات الوافدة المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى ، لتمثل أخطر التحديات التى يتحتم معرفة أبعادها وحصارها ، وكشف زيفها، ومقاومة تناميها وانتشارها فى مناهج العلوم الإسلامية .

ونحن نمر اليوم بمرحلة أشبه بالمرحلة التى مر بها الفكر الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، عندما ترجمت الفلسفات اليونانية ، ونشأت عنها عملية تغريب واسعة النطاق ، استطاع علماء المسلمين حسمها ؛ بالكشف عن أخطاء مفاهيم الفلسفات الوافدة وتعارضها مع مفهوم الإسلام ، كما كشفوا عن المذاهب الهدامة التى نشأت نتيجة هذه التيارات .

ولقد عمل النفوذ الأجنبى على إحياء هذه المذاهب الوافدة والدعوات الهدامة ، وإعطائها صورا جديدة ومظاهر براقة خادعة ، وأسبغ عليها مظهراً علميا ليجعلها متصلة كأنها حقائق علمية ، بينما هى فروض عقلية قابلة للخطأ والصواب .

وكان لسيطرة النفوذ الأجنبى على التعليم والثقافة والصحافة الأثر الكبير فى ترويج هذه العملة الزائفة ، التى تدعوها إلى الإلحاد والإباحة والكشف وإنكار الأديان والوحى والجزاء الأخروى .

وكانت الماسونية هى الوكر الأكبر لتفريخ هذه الفلسفات ، بعد أن انتشرت فى العالم الإسلامى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية ،والتى عمدت إلى تحطيم الوحدة الإسلامية وإسقاط السلطان عبد الحميد ؛ إثر موقفه المشرف من معارضة أهداف الصهيونية فى الاستيلاء على فلسطين ، ثم كانت البهائية والقاديانية ، ومذاهب الروحية الحديثة ، والدعوة إلى الإقليمية الضيقة والقومية بمفهوم الغرب والعنصرية .

وكان أخطر ما عملت له قوى الغزو الثقافى هدم مفهوم الإسلام فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والتركيز على مفاهيم العلمانية ، التى ترمى إلى فصل الدين عن السياسة فى بناء المجتمعات ، وحجب الشريعة الإسلامية ومفهوم الاقتصاد الإسلامى ، وإعلاء شأن النظام الرأسمالى أو النظام الماركسى ، وقد أثبت كلاهما عجزه عن العطاء .

ثم كانت هناك محاولات فرض الفلسفة المادية من خلال الدارونية ، ثم من خلال مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع (فرويد وسارتر ودوركايم) وهى مفاهيم تحمل فى أصولها المفهوم المادى للإنسان ، وتعامله معاملة الحيوان ، وتفرض عليه المناهج التى تفسر بها المادة، دون اعتبار للطبيعة الإنسانية الجامعة بين الروح والمادة والنفس والعقل ، وقد كان لهذه المفاهيم آثارها البعيدة المدى فى تاريخ الأدب ونقده ، وفى دراسات المجتمع وفى دراسات العلوم نفسها .

ويمكين القول إن المخططات الوافدة استهدفت أساسًا تدمير مفهوم الإسلام الجامع ، بالانشطارية والتشكيك فى الوحى والنبوة والقرآن ، وتزييف تفسير التاريخ والتراث، وإثارة الشبهات حول الفصحى لغة القرآن ، وإثارة الشبهات حول مجموعة من الحقائق الأساسية : على النحو التالى :

أولا : تمزيق الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليميات والقوميات، وإثارة روح الشعوبية .

ثانيا : هدم عقيدة التوحيد الخالصة عن طريق إشاعة نحل الوثنية والدهرية والباطنية والإلحاد والتصوف الفلسفى .

ثالثا : هدم الثقافة الإسلامية الجامعة بالترويج لنظرية دارون ، وبالدعوة إلى الفلسفة المادية والتفسير المادى للتاريخ .

رابعا : هدم مفهوم الإنسان عن طريق نظريات العلوم الإنسانية والاجتماعية (الأخلاق والنفس والاجتماع) .

خامسا : هدم مفهوم الشريعة الإسلامية بإثارة دعوات العلمانية والعقلانية وغيرها .

سادسا : زلزلة مفهوم عالمية الإسلام : بالدعوة إلى وحده الأديان : القاديانية ، البهائية .

أولا : تمزيق وحدة الإسلام بالدعوة إلى القوميات والإقليميات وخلق روح الشعوبية والصراع

إن أول هدف حرص النفوذ الغربى على ضربه فى محيط الإسلام والعالم الإسلامى هو الوحدة الإسلامية الجامعة ، التى قامت أساسًا على وحدة الفكر المستمد من التوحيد الخالص ، والتى كان القرآن الكريم قاعدتها الأصلية وركيزتها الأولى . ولما كان هدف الاستعمار هو تمزيق هذه الوحدة لتفكيك هذا الإجماع ، الذى كانت تمثله الدولة العثمانية الجامعة لعنصرى العرب والترك ، والتى كانت تحمل لواء الخلافة الإسلامية ، والتى تعتبرها كل الدول الإسلامية؛ من فرس وهند وماليزيين وغيرهم بمثابة القاعدة العريضة للأمة الإسلامية .

ومن هنا فقد قامت المؤامرة على أساس القضاء على هذه الوحدة وتحطيم هذه القاعدة ؛ وذلك بطرح نظريات القوميات والإقليميات، وفرضها بالقوة فى إطار النفوذ الاستعمارى ، ومحاولة خلق فلسفة وتاريخ وتراث لهذه الإقليميات بهدف إقامة الحدود بين الأجزاء والفصل بينها .

ويقول الفيلسوف المسلم محمد إقبال : إن الإنسانية لن تستريح أبدا ، مادامت تسودها هذه النظرية المشؤومة التى تقطعها إربا إربا ، بحيث لا يكاد الصدع يلتئم .

ولقد حملت نظرية القوميات مفهوم العنصرية وإيقاع الخلاف والصراع بين الجيرة المتلاقية ، وإثارة العصبيات التى تؤدى إلى الفرقة والخلاف ، ولقد كان هدف إثارة دعاوى القوميات والإقليميات بعيد المدى ، يرمى أساسًا إلى غرس العنصرية الصهيونية على أنها قومية تصارع العروبة ، وقد سبقتها الدعوة إلى إخراج الدولة العثمانيه من وحدتها الجامعة بين الترك والعرب ، بالدعوة إلى الطورانية التى حملت لوء العنصرية البغيضة .

ولما كانت تركيا فى عهد الاتحاديين أعداء الوحدة الإسلامية قد حملت لواء الخصومة للعروبة فقد أدى ذلك إلى ظهور دعوى قومية عربية مماثلة ، كانت مصدرا لتمزق المسلمين إلى قوميات .

ولقد كانت فكرة القوميات فى الغرب محاولة تحقق بها القضاء على الوحدة المسيحية الأوربية من أجل إفساح الطريق لنفوذ اليهود الذين كانوا محصورين فى الجيتو ، وكان قضاؤهم على الوحدة المسيحية هو العامل الأساسى لتمكنهم من السيطرة ؛ ثم

جرت المحاولات للقضاء على الوحدة الإسلامية التى كانت تمثلها دولة الخلافة، لفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين .

وقد جرت المحاولات لإدخال مفهوم القومية العربى إلى تصوير العلاقة بين العروبة والإسلام ، على النحو الذى وقع بين المسيحية والقوميات فى الغرب مع الاختلات البعيد والعميق ، وأهمها أن الإسلام هو الذى صنع وحدة العرب ، وقد خدعت دعوة القومية كثيرين ، وظنوا أنها طريق موصل لعزة العرب ؛ ولكن التجربة كشفت عن فساد هذا الخطر الوافد الذى انحرف عن مفهوم الترابط الجامع بين العروبة والإسلام ، وحين تسلطت قوى التغريب ففرغت العروبة من مفهومها الأصيل والتمست لها مفهوما علمانيا خادعا ومفرغا من كل القيم .

وقد كانت دعوى القومية العربية على النحو الذى ظهرت به بمثابة حرب على الوحدة الإسلامية ، ذلك أن مفهوم العروبة التى قام بها الدعاة عند سقوط الخلافة كان مفهوما إسلاميا أصيلا . أما الدعوة التى جرت من بعد فقد كانت محاولة للقضاء على الأمة الإسلامية والعروبة معا ،

وكان أخطر ما دعوا إليه القول بأن العروبة عقيدة كالدين ، وقولهم إن الإسلام نفسه هو تراث عربى ، وكان ذلك كله زيفًا يختلف مع مفهوم الإسلام ، ولذلك فإنه بعد كل ما حشد له من قوى فقد سقط وأحدث سقوطه دويا شديدا .

فقد كانت حركة القومية العربية حركة علمانية خدع بها الكثيرون أول الأمر ، ثم تكشف أنها تهدف إلى تدعيم الصهيونية ، وأنها تحارب الإسلام بوصفه مجتمعا واحدًا، وبوصفه منهج حياة ورسالة، وكانت القومية بهذه الصورة تحمل مفاهيم مضطربة بين الليبرالية والاشتراكية .

ويقول الدكتور محمد على الزعنى : إن الدعوة للقومية المدخولة نتاج ماسونى إذ هما سكين شق به أتاتورك العرب عن الترك ، ونفذ لما دعاه من فصل الدين عن الدولة، وفرض العلمانية ، وجعل الخمسين ألف مسجد فى تركيا عديمة الأثر فى الواقع .

ولكن اليقظة الإسلامية سرعان ما اكتشفت أهداف الدعوة إلى القومية وإلى الإقليمية، وتحققت من فشل التجربة، وعلا صوت صادق بأنه لا عروبة إلا فى إطار الإسلام .

لقد كانت القوميات نتاج ماسونى كذلك كانت العلمانية أيضا. لقد كان استيراد

نظرية القومية من الغرب عاملا جديدا من عوامل تعويق النهضة ، والحيلولة دون جمع الشمل بعد أن عمق الاستعمار عوامل الفصل بين العرب والمسلمين، وبين العرب وأنفسهم، ووضعهم فى إطارات القوميات الضيقة؛ سورية ومصرية وسودانية ، وحاول أن يجعل لكل قومية إقليمية عوامل فصل وتميز ، تحول بينها وبين الالتقاء مع جاراتها فى روابط اللغة والفكر والعقيدة ، ولقد كان فهم العرب للقومية فى أول الأمر واضحا صريحا ، فالعروبة تتحرك داخل إطار الإسلام ، لا من أجل إعلاء العنصر أو التميز بالجنس ، بل من أجل مقاومة الاستعمار ، والقضاء على الاحتلال ، فهذه الصيحات الوطنية كلها لم تكن خارجة عن إطار الإسلام ، ولكنها كانت تتحرك داخله وبفضله ؛ فالإسلام هو الذى علم المسلمين حماية الأرض والعرض ، وإن كل الثورات الوطنية فى العصر الحديث خرجت من عباءة الإسلام أساسا ، ثم تحول دعاتها إلى مفاهيم علمانية منفصلة عن مفهوم الوطنية الإسلامية الجامع ، لقد عمد النفوذ الأجنبى إلى تحويل الاتجاه الوطنى إلى سور عال يحجب الوحدة الجامعة ، بل ويقيم نوعا من الخلاف والعدوان بين الأجزاء التى كانت واحدة ، وكان المفكرون والزعماء يؤمنون بوحدة المسلمين أساسًا ، وبوحدة العرب مع المسلمين فى رابطة الفكر والعقيدة ، ولكن دعاة النظرية القومية العربية لم يلبثوا أن طرحوا مفهوما جديدا للقومية ، يسلخ العروبة من مقوماتها وارتباطاتها ، ويجعلها أشبه بالقوميات الأوربية ، استعلاء وعدوانا ، فإذا كانت النظرية الغربية فى القومية قد استبعدت الدين ، فإن على النظرية العربية فى القومية أن تستبعده ، وإذا كان من أصحاب النظرية استبعاد الدين ، فهل فى إمكانهم بالتطبيق على العرب استبعاد الإسلام (وهوليس ديناً بمفهوم الغرب اللاهوتى القاصر) ؟

ذلك ما عجزوا عن تصوره فالإسلام ليس دينا كالدين الغربى الذى استبعدته أوربا ، ولم يقع المسلمون يوما فى خلاف مع الإسلام كالخلاف الذى وقع فيه الغربيون مع المسيحية ، ولم تكن العروبة يوما نقيضا للإسلام كما جاءت القومية الغربية نقيضا للوحدة المسيحية .

كذلك فإن اللغة والتاريخ وهما عنصر القومية الأولى لاينفصلان فى الثقافة العربية عن الإسلام ، ومن هنا يتبين استحالة تطبيق التعريفات القومية الغربية على علاقة العروبة بالإسلام . وإذا كانت اللغة دعامة الوحدة فإنها لاتنفصل عن القرآن والإسلام ،وليست العبرة بمن يتكلم عربيا ، بل العبرة بمن يفكر عربيا ، أما التاريخ فليس للأمة العربية تاريخ

منفصل عن الإسلام أو سابق له، والإسلام قبل ذلك كله وبعد ذلك كله ليس دينا عباديا لاهوتيا ، بمعنى أنه علاقة بين الله والإنسان ، بل هو ضابط العلاقتين بين الإنسان والله ـ تبارك وتعالى ـ دين الإنسان والمجتمع .

وبعد : فإن الأمة الإسلامية تتحرك أساسا فى ثلاث حلقات متصلة ؛ الوطنية (بمعنى الأرض) العروبة (بمعنى القوم) الإسلام (بمعنى الوحدة الإسلامية الجامعة) فإذا اجتاحت ديار الإسلام عملية استعمار ، وتراجع المسلمون إلى الأرض ، فإنهم فى نظرتهم الوطنية لا ينفصلون مطلقا عن الحلقتين الأخريين ، وإذا وقف الإسلام فى موقف العروبة فإنهم يؤمنون بأنها ليست نهاية ولكنها مرحلة للوصول إلى الوحدة الإسلامية .

وبالجملة فإن العرب يؤمنون تماما ، بأنه لم يكن لهم وجود حقيقى كأمة ولا كوحدة قبل أن يجمعهم الإسلام ويوحدهم ، وليس فى تراثهم شاعر واحد تحدث عن العروبة أوجاءت هذه العبارة فى شعره ، فقد كانت القبيلة هى الأساس ، وهنا يبدو خطأ محاولة تفضيل العروبة على الإسلام بهذا السبق الجاهلى القبلى ، والعكس هو الصحيح فالإسلام هو الذى صنع العروبة ، والعرب فى حقيقتهم مادة الإسلام .

ولقد تبين من خلال التجربة التى قامت فى البلاد العربية من قبل فساد محاولة جعل القومية فى أفق الغرب بديلا للإسلام ؛ فليس الإسلام دينا بمفهوم دين الغرب ، وليست العروبة قومية بمفهوم القومية الغربية ، وليست العروبة فى مواجهة الإسلام أو العكس ، بل هما متكاملان كوجهى العملة ، والإسلام أصل وأساس ، ولا عروبة إلا فى إطار الإسلام . والعروبة بمفهومها الأصيل تتكامل مع الأمة الإسلامية قاطبة بالأرض والفكر واللغة والثقافة ، فهناك انفتاح ولقاء وتكامل ، وليس هناك صراع أو صدام ، وليس هناك فاصل بين تاريخ الإسلام وتاريخ العرب طوال هذه القرون إلا فى الفترة الأخيرة بعمل الاستعمار .

ولا يقر الإسلام قومية الصراع والتنافس والاستعلاء بالدماء أو قومية مفرغة من مبادئ الإسلام وقيمه فى بناء المجتمع والتعامل مع الإنسانية .

ولقد كان لإسقاط الخلافة أثر خطير ودوى شديد ، فقد كشف الحدث عن ضخامة المؤامرة على المسلمين، ومنذ سقطت الخلافة الإسلامية، وتؤرخ بها الأحداث ، فلم ينم المسلمون على الضيم ، وأخذوا يفكرون فى التجمع مرة أخرى تحت أسماء مختلفة وفى

محاولات جادة للتوحد والتضامن . لم يستسلم المسلمون للمؤامرة الخطيرة ، إذ كان سقوط الخلافة الإسلامية عملا بعيد المدى ، من أعمال المكر السياسى والدهاء الاستعمارى، والتآمر الصهيونى البالغ القسوة والعنف ، فى فترة كانت من أقسى فترات الضعف والتخلف ، وقد توالت الدراسات والأبحاث والاجتماعات فى سبيل دراسة هذا الحدث الخطير، وإقامة البديل له ، ولم تحل مؤامرات الإقليميات والقوميات وإحياء الأجناس والدماء دون فهم أبعاد المؤامرة الخطيرة التى كانت تجرى لتمزيق الأمة الإسلامية.

ودعا بعض المفكرين إلى إقامة كومنولث إسلامى أو هيئة أمم إسلامية ، وقد كانت خطوات التضامن الإسلامى من أبرز هذه الخطط ، وقد جاء ذلك بأسرع مما كان يتصور أعداء الإسلام ، ممن ظنوا أن سقوط الخلافة سوف يقضى على وحدة المسلمين إلى الأبد .

ونحن اليوم نرى المسلمين على الطريق للغاية الكبرى فى جمع كلمة المسلمين، وتعميق ذلك الترابط القوى بينهم مرة أخرى ، ولقد عمل المسلمون منذ ذلك اليوم فى سبيل الوحدة الإسلامية ولم يستنيموا إلى الاستسلام أمام مؤامرة النفوذ الأجنبى .

ثانيا : هدم عقيدة التوحيد الخالص

تجددت فى السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء الفكر الوثنى الذى كان ذائعا قبل الإسلام ، وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ، ومحاولة خلق تراث فكرى أو أدبى لهذه المحاولة ، وقد جرى العمل لذلك فى كل أجزاء العالم الإسلامى وأقطاره ، وركز فى كل قطر على تاريخ سابق للإسلام ، فى محاولة لرده إلى الحياة وابتعاثه وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة . والمعروف أن العالم الإسلامى قبل ظهور الإسلام قد عاش حضارات مختلفة أبرزها الفرعونية والفينيقية والفارسية واليونانية والهندية ، وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى فى الأغلب من الأديان المنزلة ، ثم انحرفت عنها وقد التمست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء والعدوان ، وعرفت فى محيطها الداخلى بنظام المفاضلة الكاملة بين طبقتين هما السادة والعبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام العبودية، وجعلتها نبراسا لها ، فضلا عن العدوان والغدر للأمم المجاورة ، وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم ــ قبل الإسلام ـ من أبرز الأمثلة على هذا المنهج الذى عرفته هذه الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات ، وقد اتخذ النفوذ الغربى من حملات البحث عن الآثار والكشف عنها فى البلاد العربية والإسلامية أداة خطيرة فى تشكيل قضية جديدة ، تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية ، التى حطمها الظلم وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق ، والتى عرفت بالعدوان والظلم والإباحة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارسى قيام الأمم وسقوطها ، كما ارتبطت الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام بالدعوة إلى الإقليميات والقوميات ، وقد برزت فى البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبربرية وغيرها ، وأحاطها دعاتها والعاملون من ورائها والقوى الاستعمارية الدافعه لها بكثير من عوامل التحريك والإثارة ، غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة الذاتية ما يمكنها من الاستمرار فإن التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها ، ذلك لأن الإسلام حين جاء منذ أربعة عشر قرنا قد أنهى الوجود الفكرى والاجتماعى للأمم والمجتمعات ، وشكل لها وجوداً جديدا ما يزال حيا متجدداً .

ولقد تجاوز المسلمون تاريخهم القديم كله بالإسلام مرتين ، مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية ، وعقائد الثنوية والتعدد وعبادة الأوثان وتقديس الفرد وتحويل البطل إلى إله ، ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشرى كله، وامتص خير ما فيه من

عصارة ، وتجاوز عما ليس متصلا بالأصول الأصيلة له من التوحيد والعدل والإيمان بالغيب والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقى .

١ ـ الوثنية :

وقد استهدفت التيارات الوافدة الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام ، إحياء الوثنية والجاهلية ، وهى ترمى فى مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين لتقبل تعدد الآلهة والأصنام ، والنظر فى بساطة إلى أمور قطع الإسلام فيها بالرفض ، ونهى المسلمين عن الإعجاب بها والتوقف عن معارضتها . ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها مما يعد سائغا أو متقبلا فى النفس العربية الإسلامية ، كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات، ثم العادات الاجتماعية فى الموالد والأفراح والمآتم ، ونحن نعلم أنه فى عصر ما من عصور ما بعد الإسلام استشرت هذه الوثنيات وعادت إلى التشكل فى صورة مهرجانات وأعياد ومواسم وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد والولادة والوفاة ، وما تزال هذه العادات سائدة ، وهى تختلف اختلافاً واضحا عن مفاهيم الإسلام وقميه، فضلا عما تهيئ هذه المذاهب من إحياء (طقوس) لا يعرفها الإسلام ولا يقرها ، وهو الذى حرر البشرية منها ، فقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأحجار والحيوانات والأنهار ، ودعا إلى التوحيد الخالص المعارض لكل مظاهر الوثنية والشرك والتعدد جميعا ، وعن اتخاذ بعض الناس بعضهم أربابا ، كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة (الشمس والقمر) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان .

وتطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التى لا تفرد الله تبارك وتعالى بالتوحيد، وتنسب الوثنية إلى الوثن (أى إلى عبادة الأحجار والأصنام)، وقد صف اليونان القدماء (الإغريق) بالوثنية ، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف فى المدى والفهم ، وكانت الوثنية اليونانية عريقة ، لها أيدلوجية كاملة ، ولها فلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو، وشعراء أمثال أسخيلوس وسوفوكليس ، والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة ، أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان أو تأليه البشر : فرداً أو أسرة أو جماعة ، وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء، أو الحديثة كاليابان والهنود، وكعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء ، ولذلك فقد حرص الإسلام على الاقتصاد فى تكريم الأبطال والصالحين ، حتى لا تتحول هذه الطقوس مع الزمن إلى نوع من العبادة ، وقد حرص الإسلام على عدم إسباغ أى نوع من أنواع التكريم

المبالغ فيه للأبطال أو الصالحين ، حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل ما تحولت إليه تقاليد اليونان ، الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة ، فكل إله يمثل قوة طبيعة خاصة يديرها ويتولى أمرها ، ومن ذلك زيوس إله الرعد والبرق، وهو كبير الآلهة عندهم، وديميتر إله الأرض والخصوبة ، وأفروديت إلهة الجمال ، وأبولو إله الشمس ، ونبتون إله البحر وهكذا . وكانوا لا يفرقون بين طبيعة الآلهة وطبيعة البشر ، إذ يجوز عليها ما يجوز على البشر من بغض وحقد وقسوة وشره وطمع وجبن وحب للانتقام ، وكانت آلهتهم لا ترى بأسا من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى وتتصف بالأخلاق الشريرة .

وقد هاجم الإسلام الوثنية وهاجم تعدد الآلهة ، ودعا إلى عبادة (الله) الواحد الأحد . وتختلف الوثنية العربية عن الوثنية الإغريقية فى أنها لم تكن وثنية قائمة بذاتها ، وإنما كانت انحرافًا عن التوحيد الخالص الذى دعا إليه إبراهيم عليه السلام ، فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم والحنيفية، ولكنهم مع تقدم الزمن ومع تفرقهم فى الأقطار كانوا يحملون معهم بعض حجارة الكعبة ويتبركون بها ، ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان ، ومن هنا اختفى التوحيد وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها القرابين ، ومن وثنية العرب عبادة النجوم .

ولا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من وثنيات يستهدف إشاعة الفكر التلمودى ، الذى شكله اليهود خروجا عن مفهوم رسالة موسى عليه السلام ، واستهدافا لتحقيق غاية معروفة هى الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين ، وقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشرى الوثنى السابق للإسلام كله ، وأعادت صياغته من جديد واعتبرته تراثا للبشرية تدعوا إليه وتزدهى به ، وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفى عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب (الآداب والعقيدة) يبدو هذا العمل الخطير فى: إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس والعبرانيين واليونان ، وما يتصل بها من رموز كالخنفساء الذهبية والحية والسمكة والثور يحمل فوق قرنيه الشمس ، والثور المجنح وأبى الهول والأهرامات والمثلثات والمربعات والدوائر والأعداد المقدسة (كذا) كالعدد ٣ ، ٧ ، ٩ وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلا عن السحر فإنه باب وحده ، وقد حرصت التلمودية على هذا التراث كل الحرص، وعملت فى كل العصور على تجديده،

وعلى بعثه فى صورة أو أخرى ، وعلى تلقينه فى المحافل السرية ، وخاصة ما يتصل بالمهابهارتا والرمايانا والزاندفستا والإلياذة وتجىء التلمودية والمشنا على رأس الكتب ، ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم ، وتلك هى أخطر خلفية وراء إحياء ما قبل الإسلام .

٢ ـ الدهرية :

ولقد كانت الدهرية واحدة من أخطر الدعوات الهدامة التى أذاعها النفوذ الأجنبى فى البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام وقيمه الأساسية ، فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار القضاء على القوة الأصيلة التى قام عليها الإسلام ،وهى التوحيد، فنشر فى كل مكان حل فيه مفاهيم المادية والدعوة إلى القول بمعارضة وجود الخالق وأن الكون طبيعى وجد اعتباطا ، وقد عرف هذا المذهب بالتبشيرية نسبة إلى كلمة الطبيعة فى اللغات الأجنبية (Nature وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة فى[٨٨])، الهند حيث نشرها الإنجليز بين المسلمين ، وتنبه لها السيد جمال الدين الأفغانى فوضع رسالته المعروفة (الرد على الدهريين التى صدرت عام ١٨٨٥ وترجمها الشيخ محمد عبده) وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيتشر اسم الطبيعة، وطبيعة النيتشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت ببلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ، وتقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والإبضاع بين الناس عامة ، وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا ، وبالغوا فى السعى إليه ، وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة وتقلدوا فى مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالزوال .

« وأيما ذهب ذاهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة ، تجلى له أنه لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية ، إذ لا ريب فى أن الدين مطلقا هو سلك النظام الاجتماعى ، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين ألبتة ، وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان ، وطرح كل عقد دينى ، أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلاكها مع طول الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية ـ وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية ـ كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة » .

وقد عرف أن الدهريين هم منكروالأديان السماوية ، وأنهم عشرة مذاهب : الأبيقورية ، الارتقائية ، المزدكية ، الباطنية ، أتباع فولتير ، جان جاك روسو ، والموريون ،

النفعيون ، المدلسون ، الماديون . وقد وصفها الدكتور صلاح الدين السلجوقى بقوله : إن الدهرية هى حكومة الغرائز والعقد النفسية وتشاء أى الدهرية أن يعم الذل والهوان والخوف والإرهاب والتفرقة والكراهية ، وإن قبيلا من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلى وهو الإباحة والاشتراك ، واكتفوا فى ظاهر الأمر بإنكار الألوهية وجحود يوم الدين : يوم العرض والجزاء .

وأبرز مفاهيم الدهرية :

١ ـ إنكار وجود الخالق ، والقول بأن الكون بلا إله ولا صانع .

٢ ـ قولهم : إن الدهر قديم .

٣ ـ إنكار البعث والإعادة .

٣ ـ الباطنية :

كذلك فقد أحيت قوى التغريب والغزو الثقافى لخدمة النفوذ الأجنبى مفاهيم الباطنية القائمة على الرفض والتعطيل وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث والقول بأن للقرآن والأحاديث بواطن تجرى مع الظواهر مجرى اللب من القشر .

وقالوا : إن اللغة والأدب علوم لا تراد لنفسها بل لغيرها ، وقد قامت دعوتهم على أساس التأويل : تأويل آيات القرآن ، وقالوا إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، وذلك بهدف اقتحام مفهوم الإسلام الصحيح ، والخروج عليه بالدعوة إلى رفض الفرائض ، وإباحة المحظورات لأوليائهم ، وقد أولوا الصلوات الخمس وصيام رمضان وفريضة الحج .

وقد احتضنت الباطنية آراء مزدك فى شيوعية النساء والأموال ، وقالت الباطنية : بإنكار الميعاد والإباحة المطلقة ، واستباحة المحظورات، وإعطاء بعض الرؤساء العصمة . وقد قامت آراء الباطنية على أساس الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك وزرادشت ومانى ، واتخذت لها ستاراً من الولاء لبعض الأسماء اللامعة ، واتخذت من الشعوذة والتقشف وسيلة لها ، واستهدفت من وراء ذلك كله استعادة دولة الأكاسرة ، وقد عمدت إلى الهدم عن طريق تحطيم عقيدة الإسلام ، وإثارة الشكوك فيه ، وقد ساعدهم على نشر تلك الآراء جماعات من إخوان الصفا والشعراء المجان وبعض الشخصيات المنحرفة ، مثل ابن المقفع وحيدر بن كاوس .

وقد أعادت قوى الغزو إحياء هذا الفكر فى العصر الحديث ؛ يقول السيد أبو الحسن الندوى : أدرك الباطنية الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها أساسًا تقوم عليها الحياة الإسلامية والهيكل الفكرى والعلمى فى حياة المسلمين ، هذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون بماضيهم ومنابعهم الصافية ، فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعانى ، وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين أو تسرب الشك إليها ، أصبحت هذه الأمة فريسة كل دعوة وفلسفة وساغ لكل واحد أن يقول ما يشاء ، وقد وصفت الباطنية بأنها ثورة على النبوة المحمدية ، وأن هدفها الصحيح هو تدمير دولة الإسلام .

ولقد قامت الفلسفة الباطنية أساسا على الإلحاد فى العقيدة والإباحية الأخلاقية ، ومن خلال الفلسفة الباطنية قامت دعوات عديدة ، ولم تزل كلها تعتمد الفلسفة اليونانية والفلسفة الغنوصية معا أساسًا لها، وخاصة الأفلاطونية المحدثة ، وجرت كلها على التأويل الفلسفى والاستناد على مفاهيم المجوسية القديمة ، وهى بذلك تخالف مفهوم الإسلام مخالفة تامة ، وتعارضه معارضة كاملة . فليس فى الإسلام وسيط بين الله تبارك وتعالى والعباد، ولا إنسان له صفة العصمة إلا رسول الله ﷺ المؤيد بالوحى ، والذى وصفه ربه بأنه بشر ورسول وليس لعلم الله وريث خاص ، وليس هناك قانون يلزم المسلمين غير الشريعة الإسلامية ، التى جاء بها القرآن والتى اكتملت قبل أن يختار الرسول الرفيق الأعلى ، وقد فصل الإسلام تماما بين الألوهية والبشرية والنبوة ، فلا يمكن أن يرقى الإنسان إلى مرتبة الألوهية .

محاولات لإحياء التراث الفلسفى الباطنى القديم :

قامت مفاهيم النسك والزهد وتزكية النفس من خلال مفاهيم القرآن الكريم ، وبناء عقيدة الأخلاق التى تمثل الركيزة الثالثة فى عقيدة الإسلام : شريعة ـ معاملات ـ أخلاق، وقد عرفها المسلمون من خلال سيرة الرسول ﷺ ، ومن مناهج التربية الإسلامية الأصيلة، غير أنه بعد أن ترجمت الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية دخلت مفاهيم زائفة على عقيدة الأخلاق الإسلامية ، وأبرز هذه المفاهيم الوافدة :

وحدة الوجود والاتحاد والحلول والإشراق .

وقد عمدت الدعوات الهدامة المستحدثة إلى إبراز هذه السموم وإثارتها، والدعوة

إليها على نحو يرمى إلى تزييف مفهوم الإسلام ، فى مواجهة ما قرره المسلمون القدامى ، من قول أمثال الجنيد وغيره :إن مذهبهم مقيد بالأصول ـ الكتاب والسنة ـ وهويرى فى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن يدّع مع الله حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا نقر به .

وحدة الوجود :

وأخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الاسلامية :ـ عقيدة التوحيد الخالص الذى أنزل الله بها رسله وكتبه ـ هو أنها تقول بتأليه المخلوقات ، واعتبار الكون هو الله ـ جل وعلا ـ بينما يفرق الإسلام بين الله الخالق الذى ليس كمثله شىء ، وبين الكون المخلوق ، فالإسلام يقرر أن الموجود اثنان : واجب الوجود وممكن الوجود؛ فواجب الوجود هو صانعه الواحد الفرد الصمد ، وممكن الوجود هو هذه الكائنات التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

أما أصحاب مذهب الوجود فيقولون : إن كليهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله وهو مفهوم غير أصيل فى الفكر الإسلامى ومستمد من فلسفات أخرى خرجت على مفهوم التوحيد الخالص ، الذى أنزل الله تبارك وتعالى به الأديان والرسل جميعا، واستبان على أكمل وجه فى الإسلام وكتابه القرآن .

فقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد والحلول وأنكر حلول الخالق فى المخلوق ، أو استغراق المخلوق فى الخالق ، وهو يميز طبيعة كل منهما ، ولا يقبل الإسلام وحدة الوجود لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية: لا إله إلا الله، إلى ما يقوله بعض الفلاسفة : لا موجود فى الحقيقة إلا الله. وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الأخرى ، والمعروف أن نظرية وحدة الوجود هى فكرة ترددت أو الأمر فى الفلسفة اليونانية ، وهى تتعارض مع الفطرة التى جاء بها الإسلام حاثا أتباعه على التفكير فى خلق الله ناهيا عن التفكير فى ذات الله ، مقرراً أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجودا بنفسه ، ولا ريب أن كثيرا من الباحثين ـ دون هدى من معطيات الوحى والرسالات المنزلة ـ قد جروا أشواطا طويلة وراء الحقائق الكونية ، فلم يهتدوا ، وكانت غايتهم :هى إدراك الله تبارك وتعالى وإدراك ما وراء الطبيعة ، بالحواس القاصرة وبالعقل البشرى المحدود ، غير مقدرين أن هذه الأدوات من حس وعقل هى فى ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه الغاية الكبرى ، التى لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان برسالة الله ووحيه ، الذى أنزله إلى

أنبيائه ، والتى تكفل للإنسان الطمأنيينة التامة فى هذا المجال ، وتغنيه عن هذه المحاولات التى لا تنتهى إلى شىء ما ، والقول بأن الله ـ جل فى علاه ـ هو الكون ، إنما يمثل فهما ماديا خالصا لذات الله تبارك وتعالى ، يتعارض مع العقل ومع الفطرة ومع ما أودعه الله فى رسالة الدين الحق الموحى به الذى أراد به سبحانه أن يطأ من النفس الإنسانية فى هذا المجال حتى لا تكون فى حاجة إلى البحث الذى لن تصل به إلى شىء ، وأن يفسح لها طريق التأمل والفكر فى المجال الآخر ؛ مجال العمران واكتشاف أسرار المادة ، وما أودعه فى الأرض ، والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للإنسان ، وحرضه على البحث عنها واستخلاصها، وذلك حسبما صوره الرسول الكريم « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا » .

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من دعوى القول بأن الكون هو الله ، هو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقى ، فحيث إن مذهب وحدة الوجود فى ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل الذى يقول بالتفرقة التامة بين الله والعالم ، ولا يتفق مع العقل السليم الذى لا يقبل أن يكون الله ـ جل فى علاه ـ هو العالم بما فيه من حيوان وجماد ؛ فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الإسلام : هى الأخلاق .

فالقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التى تقوم على أساس مكين ، فما دام الله ـ تعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ قد اتخذ الإنسان مظهراً له ، فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التى تستهدف معارضة الإسلام فى صميم أصوله ، وهى إسقاط التكاليف أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله ، ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مخالفة أكيدة عقائد الإسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة . ونحن فى حاجة إلى أن ننبه إلى أخطاء المصطلحات التى تقول : الكل فى واحد والواحد فى الكل ، أو نقول : لا موجود إلا الله وأن جميع الممكنات مظاهر له ، فهذا كله يتعارض تعارضا كاملا مع التوحيد كما جاء به القرآن وفهمه المسلمون .

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود تعارض الوحى والعقل والفطرة جميعا فإن عدداً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهور: إن وحدة الوجود ليست إلا صورة مهذبة لمذهب الإلحاد ؛ لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر فى أنه يهدم التعارض الثنائى الموجود